مصر واوربا

بلادي قطعة من اوربا الشرق شرق والغرب غرب . والاتنان
الخديوي اسماعيل لن يلتقيان وديوده كبلنغ

الشرق والغرب

قد يضطر الانسان في بعض الاحيان الى الخوض في مسائل صارت تُعَدُّ مبتذلة . ومع ذلك ترى انهُ كيفما دار الفكر في مصر فانهُ يقع في دورانهِ على موضوع العلاقات بين الشرق والغرب

ان الشرق والغرب اللذين هما قطبا نشاط البشرية والبلاد الوسيعة التي عاشت فيها جماعات عديدة كل منها على اسلوب خاص بها قد فرَّق بينهما بعد المسافة وفواصل عديدة قروناً طويلة ولكن هذه الفواصل أخذت تزول وتلك المسافة تضيق يوماً فيوماً منذ سنين قليلة فقط والفضل في ذلك للغرب

من ميزات هذا العصر الذي يظهر ان ابناءهُ قد اخضعوا جميع القوات المادية لامرهم هو ان عوامل النقل والنشر والتوحيد تفعل فيهِ فعل العجائب وان الطيارة التي اجاد امير الشعراء شوقي بك في وصفها خير رمز لذلك فهي تحلق في كل صوب فوق البرور والبحور وتنطلق صاعدة في سبيل الجو متخطية جميع الحدود التي في جوانبهِ فتقرب وجوه النظر بين اهل الشمال واهل الجنوب وبين اهل الشرق واهل الغرب . وبينما هي تحلق في الزرقة حيث تتحد موسيقى الجو الكبرى بانغام المحرك يقف الفكر باهتاً امام امور مدهشة ستصير عما قريب عادية لدى الجميع . بل هناك ما هو اعظم من هذا فان المسافر الذي يغادر لوبورجه وهو نائم فيستيقظ وهو في نيويورك او بومباي او القاهرة يمكنهُ ان يوصل صوته الى حيث يريد ويرى بعينيهِ صور الناشين عند ما يشاء فهو بذلك يملك قوة الوجود في كل مكان

وبناء على ذلك يمكن ان نتصور انهُ سيأتي يوم تتغلب فيهِ السرعة على المسافة والوقت ما لم يقف العقل البشري فجأة بفعل قوة غريبة عند حد معلوم من الارتقاء وما لم يحدث حدث هائل لا توقعهُ يعود بنا القهقرى الى درك الانحطاط الذي كانت فيهِ البشرية من قبل . فاننا نرى الكائنات التي تتنافس على وجه البسيطة تسير في سبيل التمازج المتزايد

والتوحّد الشامل ونرى جهازاً عصبيًّا واحداً سريع التأثر والاحساس تمتد فروعه في كل جهة. فنحن نسير نحو توحيد العالم توحيداً ظاهراً وقد صارت العزلة اللذيذة في خبركان سواء أردنا ذلك او لم نردهُ ولا يمكن ان تباعد عن جيراننا ولذلك يجب علينا أما ان نحاول ان نستفيد منهم واما ان نحاذر من وثباتهم علينا . فيجب ان نعرفهم وان نحبهم اذا امكننا ذلك

وبينما الحضارة المادية تسير بخطوات الجبابرة في الغرب حدث عنها مباشرة حادثان عظيمان . الاول هو ان حرباً لم يكن لها نظير من قبل حطمت برج العجرفة الذي كان يقيمهُ الغرب تمجيداً للرجل العصري. والثاني هو ان شعوباً كان يُظَنُّ انها تغطُّ غطيطاً منذ الوف السنين في بلاد المشرق استيقظت واخذت تفكر في ان تنتزع من الغرب سيادة كان يعتقد انها تبقى لهُ الى الابد

قضت اوربا سنوات وهي كأنها بركان مدافع فاندفعت في حفر الخنادق انوار العقل وكنوز الادب فلم تقف الامور عند خراب البلدان بل شمل الخراب النفوس وصاح الجميع : يا للافلاس ! وفي ذلك الوقت العصيب اراد كثيرون أن يحاربوا المادية التي كانت قد ثبتت دعائم ظلمها الوحشي على اكوام من الجرائب وان يخلصوا من اضطراب ليس فيهِ من نفع فلجأوا الى التأمل ومناجاة الروح واداروا وجوههم نحو الشرق يستوحونهُ أسرار الحكمة القديمة . ونخص بالذكر من هؤلاء سبنجلر وكيزرلنغ في المانيا ثم رومين رولان وهنري مسيس وغيرهم في فرنسا . ثم ترجم بعضهم كتب رابندرانات طاغور وتسابقت الاقلام الى الكتابة في هذه المسألة . وكان للازياء نصيب في ذلك الميدان

ولا ريب في انهُ لم يكن يسع احداً ان ينكر ان المشرق قد اخذ يسير في مدارج النهوض. فهل يجب ان نعتقد ان في حياة الشعوب والحضارات فترة راحة وفترة نشاط وان الشرق بعد ان هجع عدة قرون ازفت ساعة يقظته ونهوضه ؟ ان هذا ممكن . بيد انهُ يجب في كل حال ان نعتقد ان للغرب في هذا النهوض فضلاً لان الشرق تعلم في مدرسة الشقيق والسيد الحصيف — اي الغرب — لا فرق ان كان نور الحضارة الغربية بهره فاتجه اليهِ أو انهُ اراد ان يقاوم ظلم الاستعمار فسعى يطلب لنفسه سلاحاً. وعلى ذلك كان الانقلاب الخارجي في اليابان غريباً مدهشاً وقد أظهرها انتصارها على روسيا في مظهر اذهل اوربا حتى تنادى القوم في اوربا واميركا بالخطر الاصفر

واليوم نرى في جميع انحاء الشرق سواء في الشرق الادنى او الاقصى او تركيا او الهند او الصين حياة جديدة بل حياة ثائرة فيها نزعة للحرب. فالقوم يقدمون على تجارب ويشعرون بحاجة الى التضام والتآلف وتزيد رغبتهم الشديدة في خلع نير الامم الغربية. وهذه حقيقة لا سبيل الى انكارها فالشرق لا يجهل الغرب ولا يريد ان يجهله

وهذا ما يجعلنا نعتقد ان الساعة أزفت للاهتمام بامر العلاقات بين الشرق والغرب وان الواجب هو التعارف

ولكن اذا كان يبدو ان بين اوربا وامريكا شيئاً من الوحدة واذا امكن ان يقال ان روحاً اوروبيًّا عامًّا بدأ يظهر يجب أن نعترف ان في الشرق وجوهاً من النظر تختلف كل الاختلاف وانهُ يجب تحديد ما يراد الكلام عنهُ

ان اكثر الناس في اوروبا لا يرون للشرق الاَّ قيمة خيالية . ويكفي للتحقق من صحة هذا القول ان يطلع المرء على «نداءات الشرق» في «نشرات الشهر» وان علم ان المستشرق «سيلفان ليفي» وامثالهُ يحذرون الناس من الحكم على الشرق بما يراهُ السائح الغربي في الاسواق الشرقية او بما يقرأهُ في بعض الكتب. فقد قال هذا المستشرق: «من وضع في صف واحد سوريًّا من بيروت وايرانيًّا من فارس وبراهمانيًّا من بنارس وباريًّا من ديكان وتاجراً من كشتون ومندرياً من بكين وياميًّا من التيبت وياكوتيًّا من سيبريا وكنيبالاً من سومطرة وزنجيًّا من الكونغو وبربريًّا من القبيلة يكون أشدّ الناس جهلاً بعلم الشعوب»

لا يوجد مشرق واحد بل يوجد مشارق كثيرة ولذا تقضي علينا الحكمة والنزاهة ان نحذر ونوضح موضوع بحثنا هذا

ان معرفة احد بلدان الشرق هذه ليست من المهمات الهينات ولا بدع ما دام الانسان لا يستطيع أن يعرف نفسهُ ومن حولهُ معرفة تامة . فكما انهُ قد يحكم علينا ان نبقى منعزلين الى الابد في سجن جسمنا كذلك قد يمكن ان لا تتصل حضارتان الواحدة بالاخرى

ان معرفة بلد ما امر غير يسير . نعم ان الاطلاع على ما كتب عن ذلك البلد مفيد وذو قيمة ولكن لا شيء يقوم مقام معرفته مباشرة اذ يجب معاشرة رجاله طيلة سنين عديدة واستنشاق الهواء الذي استنشقوهُ . بل ان هذا ايضاً لا يكفي فيجب تعرُّف كل شيء بنشاط وبذل جهد متواصل لزيادة الاقتراب من الاشياء والاشخاص ولكشف

الاسرار . واذا فكرنا بما كنا عليه من الانعزال في احد احياء باريس أو في احدى زوايا الارياف في فرنسا يخيل الينا اننا اذا جئنا الى هنا وتحدثنا عيوننا لتحقائق قد نجونا من مصيبة كبرى . ونعود فنقول ان من يحاول ان يتحدث عن الشرق قد يقيه فيلجأ الى البلاغة والفصاحة ولذلك نقتصر على ما اخترناهُ بشخصنا وعلى امل ان تتحف القراء ببحث منظم جلي لا نتحدث الا عن العلاقات التي بين وادي النيل واوروبا وبوجه التخصيص عن العلاقات الفكرية

مصر واوربا في التاريخ

ان تاريخ علاقات مصر الخارجية يتصل كلهُ بموقعها الجغرافي فهي باب الدخول الى افريقيا واسيا وواقعة على الطريق المؤدي الى السودان وجزيرة العرب والهند واليابان . وقد زاد في اهميتها حفر قناة السويس . ثم انها تطل على البحر المتوسط وتشترك في حياة جميع الشعوب القاطنة على شواطئه ولذلك كانت دائماً ملتقى اجناس مختلفة ومثابة اديان عديدة . ثم انها تشترك هي وسائر بلدان الشرق الادنى في اداء مهمة التقريب بين اسيا واوربا

ان تاريخ مصر يدلنا على انها كانت تارة متجهة نحو آسيا وطوراً نحو البحر المتوسط ومن ورائهِ الى بلاد اوروبا . فقد حارب الفراعنة الاشوريين وذهبت سفنهم الى الاوفيانوس الهندي ووفد الى مصر من آسيا الملوك الرعاة وفرس قمبيز وجنود عمرو ابن العاص . وجاء تجار من اليونان فأقاموا على شواطئها . وتولدت السلع بينها وبين الجزائر واشباه الجزائر في بحر الروم . واشرق نور حضارة يهودية يونانية في مدينة الاسكندرية في عهد البطالسة . وجعل حكام رومة وادي النيل ملكاً لهم وأمراء غلال

واخيراً حتى في ابان الحروب الصليبية نزل بعض التجار الفرنجيين في مدن الدلتا وأذن لهم بالاقامة والاتجار فيها . ولما وقع القديس لويس ملك فرنسا في الاسر عومل باحترام . وكان بعد ذلك ان وقّع السلطان سليمان وملك فرنسا فرنسيس الاول على وثيقة الامتيازات فدل ذلك على استمرار العلاقات . ثم جاء نابوليون بونابرت وجاء معهُ علماء لم يكتفوا بجمع الملاحظات والخطوطات بل انشأوا طرقاً وانشأوا التجارة وشيدوا اسس الاصلاح وادخلوا الناس في ميدان حضارة جديدة

ولما جاء محمد علي اتجهت مصر نحو اوروبا فاهتمت فرنسا وانكلترا بشؤونها كل الاهتمام طيلة القرن التاسع عشر . فكانت انكلترا تسعى لتأمين طريقها الى الهند وفرنسا

تناولها وتقف سداً في سبيل مطامعها اتباعاً لسياسة هي من تقاليدها وعطفاً على مصر. ثم وضعت الدولتان لنفوذهما في وادي النيل قواعد اتفقتا عليها

ومن المعلوم ان محمد علي لجأ خاصة الى فرنسا فطلب ان تمده بالرجال العسكريين والمهندسين والزارعين والاطباء . فجاء الكولونل سلف ونظم الجيش المصري واشتغل لينان وبافون بسدود النيل وجسوره وشرع موجل في بناء قناطر الدلتا وحفر كوست ترعة المحمودية وجاء جومل بالقطن وانشأ كلوت بك المستشفيات والقلالات . ثم ذهبت البعثات العلمية الى مدارس فرنسا ولما عاد اعضاؤها الى بلادهم اخذوا يروجون فيها ما كانوا قد تلقنوه في تلك المدارس . وحذا خلفاء محمد علي حذوه ولا سيما اسماعيل باشا فاستعانوا بالفرنسويين نذكر منهم فرديناند دلسبس وماريت باشا ومسيرو

ولكن بعد حوادث عرابي باشا في سنة ١٨٨٢ اخذت انكلترا تسعى لطبع مصر بطابعها فجاءت لها بمهندسين وموظفين اداريين واساتذة انكليز واتصل غزالو ليفربول بالاسكندرية اتصالاً وثيقاً . وذهب الشبان المصريون الى معاهد العلم في انكلترا لاتمام دروسهم وزاد عدد المصريين الذين يتكلمون اللغة الانكليزية بسهولة واصبحت الالعاب الرياضية منتشرة في وادي النيل و « البيا » القصيرة شائعة الاستعمال

بيد ان العلاقات التي نشأت بين مصر واوروبا ظلت في القرن التاسع عشر لانهم الا جماعة من علية القوم وكانت بالاخص اقتصادية وسياسية . فكانت مصر والحالة هذه منطقة نفوذ واستغلال يعدونها تابعة لهم وكانت هي تحذرهم وتريا في داخل قلبها تكرههم . ثم ان عامة الشعب غير المتعلمة كانت من جهة اخرى محتفظة من وراء حصن الاسلام بحياتها التربة المحجبة لاتنفذ اليها تأثيرات الغرب فظلت لاتعرف شيئاً عن الغرب وظل الغرب لا يعلم شيئاً عن الفلاح المصري

***

ولم تخرج مصر عن عزلتها ولم تستيقظ وتهتم باوروبا الا سنة ١٩١٨ بعد الحرب العظمى . فمن عاش في هذه البلاد منذ عشر سنوات قد شاهد انقلاباً عظيماً ورأى حياة جديدة تدب في ارجائها

على ان هذه الحياة الجديدة لم تظهر في الحقيقة فجأة ويجدر بنا ان نذكر اثنين مهدا لهذه الحياة. الاول الشيخ محمد عبده مصلح الاسلام والثاني مصطفى كامل باشا ابن الوطن اما الشيخ محمد عبده تلميذ السيد جمال الدين الافغاني فهو اول من اسمع صوتاً عصرياً

في الازهر حصن الاسلام وحارس القرآن والمحافظ على التقاليد الاسلامية والمتشبث بالعلوم الدينية الاسلامية . فأخذ يشرح القرآن على طرائق جديدة أمام صحافيين وقضاة ومحامين نال بعضهم فيما بعد شهرة واسعة — مثل سعد زغلول باشا — ويثبت لهم ان ديانة النبي محمد لا تتعارض مع دروس الحياة وتلقين العلوم العصرية مثل الحساب والجغرافية والطبيعيات فنبه عقول شيوخ الازهر

واما مصطفى كامل باشا فكان بشبابه الزاهي ولمعان عينيه وفصاحته المتدفقة الخلابة يمثل شخص الوطن العزيز الحي ويهز الحركة الوطنية هزًّا شديداً والشبان من حوله يهتفون ويصفقون . وقد تولى زعامة هذه الحركة من بعده رجل شهير هو سعد زغلول باشا ووحد بين الانباط والمسلمين فصارت الحركة مصرية حقيقية

ولما جاءت الحرب واعلنت انكلترا الحماية على وادي النيل زادت الحركة شدة واندفاعاً . وذهب سعد زغلول باشا ورفاقه يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ بالنيابة عن مصر الى ممثل الدولة البريطانية للمطالبة باستقلال بلادهم مستندين الى المبادئ الوطنية ومعتمدين على المساعدة التي قدمتها مصر للحلفاء . والقراء يعلمون ما حصل بعد ذلك وكيف اعترفت انكلترا بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ « بان مصر مملكة ذات سيادة ومستقلة »

***

وأول ما فعلته مصر الجديدة هو انها استغنت عن موظفيها الاجانب لتثبت مبدأ استقلالها. ولكنها لم تكن تريد بذلك قطع العلاقة بينها وبين اوروبا بل بالعكس فقد اظهرت على الاثر ولا تزال تظهر رغبتها في ان تشترك مع جامعة الامم والشعوب وان تقتبس اثر ارقى امم اوروبا

ولما افتتح مؤتمر الاحصاء الدولي حديثاً في مصر قال ثروت باشا رئيس الوزارة يومئذ: « ان اجتماع معهد الاحصاء الدولي اليوم في القاهرة امر له عندنا اهمية خاصة فهو يثبت من جديد دخول مصر في جامعة الامم وبعد مرحلة جديدة من مراحل اشتراكها مع ارقى الشعوب في المباحث العلمية التي تقوم بها وفي الجهود التي تبذلها في سبيل ترقي البشرية ورخائها » وان هذه الكلمات التي ترن رنيناً غربياً تماماً قد سمعناها كثيراً ويمكن ان نقول انها تعبر عن افكار عامة المصريين

ماذا تعلمت مصر من اوربا

فمنذ خلعت مصر نير اوربا ادارت طرفها نحوها لكي تتعلم منها

ومن الطبيعي ان حضارة الغرب بدأت تستهويها بمظاهرها الخارجية كالسيارة والتلفون الاوتوماتيقي وازياء النساء الباريسية والرقص والحانات والويسكي

ثم استهوتها الحضارة الصناعية والتجارية فاشترت من الغرب آلات واتبعت طرائقهُ الميكانيكية واستوحت اساليبه التجارية وكثر الطلب على المهندسين ورجال الاشغال . وكثرت آلات الحرث الحديثة والسواقي والطلمبات . وشاع استعمال الاسمنت المسلح وظهر بنك مصر . وبات من مبادىء الشبان المصريين المصريين ان يكونوا عمليين وان لايضيعوا الوقت وان يسعوا وراء الغنى كما يفعل القوم في اوروبا

اما في الميدان الاجتماعي فالانقلاب ظاهر للعيان فقد تحررت المرأة وصار الحجاب يطرح شيئاً فشيئاً في زوايا المهملات . والشبان والشابات يرقصون معاً على انغام الفونوغراف والزوج يخرج مع زوجته للنزهة (وهو في اكثر الاحيان ليس لهُ الا زوجة واحدة) . ومن عوامل هذا الانقلاب ظهور طبقة متوسطة من الموظفين والاساتذة والصحافيين والقضاة والمحامين يزداد عددها يوماً فيوماً تلبس الملابس الاوروبية وتتكلم بالانكليزية او الفرنساوية وتذهب ايضاً الى اوروبا في فصل الصيف . وهذه الطبقة الجديدة تأبى ان لايكون لها مقام معلوم في الهيئة الاجتماعية وتطلب ان تتنعم في الحياة بمزايا محدودة تماماً وسيقدرها الناس حق قدرها بعد عشر سنوات

واما في السياسة فمن البت الاسهاب في الكلام . ففي مصر دستور على طراز الدساتير الغربية وبرلمان يسير على خطوات البرلمانات الاوربية

ثم ان مصر لم تتردد في ان تطلب من اوروبا ان تعاونها ببعض من رجالها المفكرين فقبلت ان تستبقي المدرسين الاجانب في مدارسها الى ان تخرج طبقة من تلاميذهم المصريين تستطيع ان تحل محلهم . وانشأت بسعي جلالة مليكها جامعة يلقي فيها اساتذة اوربيون من ذوي الشهرة العلمية دروساً ويستطيع ان يتثقف فيها انجب الطلاب المصريين عندما يتوطد فيها روح تعليم عالٍ معزز للثقافة . وقد ظهر نشاط المفكرين المصريين خصوصاً في ترجمة المؤلفات العديدة وهم يرمون في ذلك الى جعل علم الغرب

قريب التناول للجميع وشحن الكتب المدرسية به فترجموا في الحقوق والطب والطبيعيات والكيمياء مؤلفات الثقات وترجموا تصانيف اوربية متنوعة وروايات تمثيلية مثلت على مسارح مصر

ولاوروبا في هذه البلاد الفنية بالآثار التي لامثيل لها نفوذ فني تفد اليها جوقات تمثيلية اجنبية تمثل الروايات الرائجة في هذا العصر وبعض الروايات القديمة . ويأتي مشاهير المغنين فيغنون هنا . ودور السينما منتشرة في كل مكان . وتقام معارض تعرض فيها طرائف الفنون الغربية . واذا كان بعض الشعراء لايزالون متشبثين بطرق النظم القديمة فان خليل مطران ينسج على منوال الغرب. ثم ان الكتاب الشبان يقتدون في كتاباتهم بزملائهم الغربيين واذا كان المصورون امثال محمود سعيد وناجي ومثال ممتاز مثل مختار يريدون أن يظلوا متشبثين بالتقاليد المصرية فان لهم فنا وطرقاً جديدة تضارع ما عند الاوروبيين منها

باب الحضارة الاوربية

ولكن هل يجوز أن نقول ان مصر تعرف اوروبا ! كلّ اوروبا ؟ او هل هي تعرف من اوروبا ما يستحق أن تعرفه ؟ ان هذا غير محقق فان هناك كثيرين من المشوذين يتصدرون المجالس ليروجوا بضاعتهم . وهناك كثير من المتشاعين الذين لا يروقهم الا ان يخلقوا المشاكل ويثيروا الشقاق. وكثير من المنادين بالويل الذين ينذرون في كل مكان بقرب نهاية العالم . ولا ريب ان اوروبا التي يشكو منها طاغور هي اوروبا ذات الآلات الظالمة المغرمة بتحليل الشيء المولعة بالسيطرة . وهذا أمر قلناه مرة غير مرة وسنقوله كلما دعت الحال لاننا نفحص أنفسنا دون محاباة . ولكن في اوروبا شيئاً غير هذا ايضاً . واننا نرى من المفيد ان نلفت نظر المصريين الى شيء في اوروبا تعلمنا نحن الذين بعدنا عنها ان نقدره حق قدره . ونريد أن نبين لهم ما هي في نظرنا نحن الغربيين قيمة اوروبا وما هو جمالها الحقيقي وان جعلناهم بذلك يزيدون شعوراً بالفرق الجوهري بيننا وبينهم

ان اوروبا تهتم أولاً بمعرفة الشيء معرفة دقيقة وقد فصلت العلم عن الدين «وتأبى المبالغات والخيالات والتصورات الغامضة الخيالية وتميل الى النقد وتحليل الاوهام تحليلا دقيقاً وتقسم وظائف الفكر تقسيماً معقولا وتنظم صوره» . وهذا ما أنشأ عندها تلك

الصفات المشكو منها وهي حب استطلاع لا يعتريه ملل وخضوع للحقائق والحذر وزاهة في الاختيار ووضوح وتدقيق في الكلام

ثم انها خلقت الحق العام الذي وان كان غير كامل الا انه يرتكز على مبدأ كرامة الانسانية . وأبدعت لغة قضائية يعبر فيها عن مبدأ واحد للعدل الزمني والعقل

ثم ان كلمات يسوع الناصري طالما تردد صداها في قلبها فخيرة أبنائها يعدون مبدأ « أحبوا بعضكم بعضاً » أسمى مثل أعلى ويحسبونه عدلاً سرمديًا

لهم كلٌّ حرٌّ في أن يقيم فرقاً بين الشخص ومعرفته وبين الفكر والروح وأن يزدري وأن ينكر مذهبنا هذا . ولكننا نقول الآن هذا بلا شك خير ما يمكن ان تقدمه أوروبا

فمن شاء ان يعرفها يجب أن لا ينظر فقط الى تجارها بل يجب ان يتجه الى من هم أعلى منهم أمثال دانتي وشكسبير وغوته وفيكتور هوجو وافلاطون وديكرت وسبينوزا وكونت وبستور وانشتين وميخائيل انجلو ورمبرنت وبيتهوفن. الى نخبة مشاهير الكتاب والفلاسفة والعلماء ورجال الفن الذين ترى ان نتاج عقولهم هو شرف للعقل البشري عامة لا للعقل الغربي فقط

ثم يجب أن تنظر الى العاملين البسيطين الذين يدفعهم حب التثقيف الزائد . أولئك الذين يقفون جسمهم وقلبهم على مهمة ما حبًّا بمثل أعلى

ثم يخلق بنا أن نشير الى الجهد الذي يبذله بعض المفكرين الاوروبيين في سبيل التقريب بين جميع الشعوب على قاعدة الاحترام المتبادل فانه يوجد في فرنسا مثلا بعض أماكن يفد عليها من كل أنحاء الدنيا أناس حسنو الادارة ليعربوا عن وجهات نظرهم بكل اخلاص رغبة منهم في نشر الوفاق والسلام . وان هناك مفكرين لا يزالون يعتقدون ان الانسانية توجد في جميع الاوطان وجميع البلدان

***

ها نحن قد بلغنا لباب مسألة العلاقات بين مصر واوروبا . فاما الماكنات فان المصريين يحصلون عليها سريعاً . وكذلك الوثائق والنظريات والطراهف وما يصلح به الوجه . ولكن أي دم يغلي تحت الوجه المدهون ؟ وأما الروح ؟ وأما النفس ؟ وأما الدعوى بالتفاهم السيق المتبادل ؟ فماذا يكون من أمرها ؟ هنا يخلق بنا أن نحذر التفاؤل الخادع والتشاؤم المثبط

يذهب البعض الى ان المصريين سيفشلون في مدرسة أوروبا وأنهم في كل الاحوال لن يقتبسوا الفكر الغربي . ومن أصغى الى كلام هؤلاء يخيل اليه ان أولئك الذين يظهر أنهم قريبون جداً من الاوروبي في ملابسهم وتربيتهم وتصريحاتهم لا يزالون بعيدين عن الاوربي مراحل لا تحصى

ويذهب البعض الآخر الى أنه يجب ان لا نخدع بحسن التقليد الذي عند المصريين والى أنه اذا كانت مصر تستعين بأوروبا لصياغة موظفيها ورجالها الفنيين وتجارها والسن قوانينها وانشاء مدارسها فانما تفعل ذلك لكي تقوم على أوروبا عندما تسنح الفرصة فهم يشكون في وطنية المصريين ويرمونهم بالكبرياء والتصلب وحتى ببغض الاجانب

وفي الحقيقة ليس على المصريين أن يصيروا فرنسويين أو انكليزاً بل واجبهم الاول هو أن يخلقوا من جديد غير طالبين من اوروبا الا خميرة حياة. وهذا أمر معقول جداً واذا فعلوا كذلك لا نرى أنهم لن يضيعوا حتى ولو أساءوا التقليد . فان كل شيء أفضل من الموت . ومن الضروري عندما يحتكون بفكر الغرب وعقائده ومشاغله أن يقوم في أنفسهم نزاع شريف وألم يحرك حماستهم. على ان عقيدتهم الاسلامية السليمة تقريباً تكفي أيضاً زمناً طويلاً لدعم حياتهم الروحية . ولن يكون نجاح الا بعمل عجيب وهو السعي لجعل مصر اليوم ، بطرق معوجة اذا دعت الحال ، وبالرغم من أزمة وطنية قد لا يكون منها مفر وقد لا تخلو من الاخطار، وارثة الحضارة الفرعونية الكبرى عن أهلية

ولسنا نعتقد أن هذا النجاح مستحيل

لا ريب أن أمام المصريين عدة مراحل يجب أن يجتازوها . لكن ليس من المحتم أن يكون كل عمل عجيب سريعاً كالبرق . أن في مصر شيبة ذات ارادة حسنة جداً تسير في سبيل النهوض . ومن المأمول أن يبلغ هذا النهوض قمته في وقت قريب. وانا نعتقد أن هذه النهضة يجب ان تقوم وستقوم تحت ظل الاتفاق مع اوروبا . اما ما يكون بعد ذلك فان الله وحده يعلمه

الى المفكرين المصريين

وهنا نوجه كلمة الى المفكرين المصريين

ان لقب المفكر ينطوي في كل مكان على واجبات شريفة ولكنها ثقيلة فهو فرض على صاحبه في بلد يجدد حياته واجب بذل النفس بل التضحية بها في قضاء اعمال

غير ظاهرة او لا يعرف فضل فاعلها . ان جامعة الامم هي مثل حلبة الالعاب الرياضية والعصر من حديد والمدل لا ينزل على الارض الا اذا وُضع على الارض . اما الوقت الذي كان يمكن أن يتمتع الانسان فيه بالراحة التامة الطويلة فقد ولى وذهب . وفي كل مكان تتطلب الحال البطولة اذا كان البطل هو اكثر اخوانه نشاطاً وعلماً واهلية واذا كان الانزه هو الذي يطلب التفوق ويسعى الى الكمال في غير كلل او وني

فالمهمة التي على عاتق المفكرين المصريين مثيرة للحماسة وصعبة في آن واحد

عليهم في الداخل ان يدبروا اصلاح النظام الاقتصادي والمالي واصلاح الاحوال الصحية واصلاح التربية الفردية والاجتماعية والادبية

اما في الخارج فعليهم ان يتعرفوا سواهم وعلى الاخص ان يعرّفوا أنفسهم لسواهم . ويخلق بنا ان نشدد في ما يختص باوربا من حيث الامر الثاني

عند ما يتحدث مفكرو اوربا عن الشرق كما فعلوا في خلال السنين الاخيرة يعنون خصوصاً الهند والصين والفرس واليابان بفلسفاتها ولا يعنون مصر

اما مصر الفراعنة فلا يعرفها عدا السياح الذين يهتمون بآثارها وبعض رجال الفن الذين يعنون بفن الكهنة ، الا الاختصاصيون بالرغم من اكتشاف آثار توت عنخ امون . ثم ان الحضارة اليونانية التي ازهرت في الاسكندرية والتي ابقت أثراً عظيماً في الفكر الغربي مدفونة في بعض المؤلفات في مكاتب اوربا . يضاف الى ذلك ان مصر وان كان أزهرها اشهر جامعة اسلامية ليست بالبلد الاسلامي الوحيد ولا أقدم بلد اسلامي . والقرآن تعرفهُ اوربا أيضاً بطريق الجزائر ومراكش وبلاد العرب والهند : أما مصر اليوم فانها تشتغل بتجديد حياتها . ولذلك حين تثبت للعصريين ان بعض اوروبا يعطف عليهم تطلب اليهم ان يخرجوا قليلاً قليلاً من حيز بلدهم الجيل وان يعلنوا عن وجودهم بالعمل مع سائر الامم والشعوب وبالاخص بتآليفهم التي تفيدهم فائدة كبرى اذا توصلوا الى ترجمتها في القريب العاجل الى اللغات الاوربية

على ان مصر اليوم ليست بالبلد الذي لا يعرفهُ مفكرو الغرب فان عدداً كبيراً من الكتاب رجال الفن الذين يطوفون العالم يمرجون عليها ويلقون عليها نظرة واتا نذكر منهم بيير بنوى ودورجليس ويونردي وكسل والاخوان تارو وغيرهم

ومنهم من أقام فيها ردحاً مثل روبر وطراز الذي قضى فيها وقتاً وعاد الى اوروبا

يحمل معهُ ليس صوراً خيالية بسيطة او مثالاً وهمياً بل شيئاً من روحها يتحدث عنهُ في مباحثهِ ودروسه. ومثل فرنسوي بوجان الذي برواياتهِ التي وضعها بالاشتراك مع الاستاذ احمد ضيف يجعل اهل اوربا يعلمون من هو « المنصور » وما هو « الازهر » وحياة شعب كامل كانت الى الآن مجهولة لديهم . ومثل هنري تويل بك الذي عرّف عظمة المكس والصحراء. ومثل بول فندربورت الذي يتغنى بمحاسن الشرق في «رسائل الشرق»

وتذهب من وادي النيل الى اوربا مجلات ونشرات يشترك في انشائها بعض المصريين . وهذي « رسائل الشرق » التي تجعل للعالم الاوربي معلومات كثيرة دقيقة عن مصر وتنقل لهُ بعض مصنفات مصرية . وهو عمل جليل والاقبال عليها في اوربا ذو اهمية لمصر . وان ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده الى اللغة الفرنساوية بقلم برنار ميشل والشيخ مصطفى عبد الرازق تجعلنا نتمنى ان يترجم سواها ليطلع عليهِ اهل اوربا

ولا ريب ان انشاء « منتدى ادباء مصر » خطوة جديدة في سبيل التقريب بين مصر واوربا . وكما ان مصر تشترك اليوم في عدة مؤتمرات اقتصادية دولية ستشترك متى دخلت في جمعية الامم في المؤتمرات العلمية والادبية

الخاتمة

قد قال بول بوران « ان سير الآلات اسرع من سير الافكار » وهذا هو الامر الذي ينجم عنهُ الضرر . فالواجب الآن ان نقدّم الرجال والافكار وان نعتبر اثرها في هدوء ووضوح

ولسنا نريد ان نقول انهُ متى عرفت مصر واوربا الواحدة الاخرى تتعانقان هوى وغراماً . ان هذا امر مرغوب فيهِ ولكن لا يزال هناك حوائل . والمثل العامي الذي يقول « الحب لا يكون بالقوة » قول صواب . ولكن لا ريب في ان مصلحتنا هي ان نتعارف . وهذا امر واضح لان كثيراً من الاختلافات يتبدد بوميض . وتصبح بعض الآراء التي تشبث بها اليوم معتقدات قديمة . ويتسع مدى الفكر . وتقوم التربية الدولية الحقيقية بفضل التعارف والمعرفة

وليس ذلك أمراً محالاً فان الفريقين يتباريان للاتفاق والتعاون والاخاء ولذلك نرى انهُ يخلق برجال الفكر والاجتماع أن يتفاءلوا تفاؤلاً معقولاً

عن « مجلة الاسبوع المصري » لفرنان لبرت ترجمة : فريد حبيش